

أصول النحو العربي: (نظري) (فوجان 1 + 2)

السنة الأولى. ماستر. لغة عربية.

العلاقة بين ركتي القياس

تابع: (القياس عند المحدثين) (الأستاذ / بوكعباش)

والقياس، لا يتحقق بوجود المقيس، والمقيس عليه فحسب، بل لابد من وجود علاقة بينها، وهي علاقة يدركها كل متكلم باللغة، حتى ولو يشعر شعوراً واضحاً، كما نلاحظ الأطفال الصغار، وهم يكتسبون لغة الأم، فيقيسون لفظة جديدة سمعوها لأول مرة، على أشباهها ونظائرها، المخزنة في أذهانهم، وقلّ ما يخطئون وهم يقيسون، ويثير الخطأ منهم ضحك الكبار واستملاحهم، كما نصادف ذلك في واقع حياتنا اليومية مع الأطفال.

يرى دوسوسير: أن عملية الابتناع (اللغوي)، النطق والكلام - هما كان نوعها - ينبغي أن يسبقها مقابلة لاشعورية، سريعة، مع محتويات الذخيرة اللغوية، الكامنة في ذهن كلّ فرد منا، صغيراً كان، أو كبيراً، حيث تقع الصيغ المختلفة، السياقية والمعجمية، وهو ما يعني، أن المتكلم، قبل أن يتقوّه بعبارة جديدة، يستخرج من ذخيرته الخاصة به، كلّ عناصرها السياقية والمعجمية الملائمة للموقف التعبيري الذي يوجد فيه، مما يعني أن الصيغة الجديدة، التي أنجزها، كانت موجودة في مخزونه اللغوي، وانتقلت، باستخدامها لها، من الوجود (بالقوة)، إلى الوجود (بالفعل)، فالكلمة: لا مسؤولية لي عما حدث، التي استخدمها، مع الشرطي، شاب يقود سيارته، صدم بها، سيارة أخرى أمامه، وهو استخدام لم يسبق له من قبل، ولكن السياق الجديد الذي وجد فيه نفسه لأول مرة في حياته، هو الذي أرجعه إلى ذخيرته اللغوية المخزنة، وكان فيها مخزوناً: (لا، لنفي الحال، المسؤولية، في صيغة النكرة المنفية بشدة، عنّ ما حدث، وهو مصيبة كبيرة تسبب فيها، لكن الخطأ هو خطأ الآخر، وهذه العبارة، يوجد لها نظير في ذهنه كمنماً منذ الصغر، مثل: (لا إكراه في الدين)، (لا ترتيب عليكم).. إلخ، والسياق هو الذي أخرجهما، من وجودها الكامن، فقياس عليها بنجاح.

القياس، وجود اللغة:

كثيراً ما يتكلم اللغويون ويردّدون، أن القياس، يعدّ من آليات تطوير اللغة، وهو كذلك، في واقع الأمر، إلا أنّ له جانباً محافظاً، أو (آلية ذهنية) تساعد في الإبقاء على الصيغ والتعبيرات والتراكيب، كما مخزنة في الذهن دون تغيير، فالتكلم، حين يقيس، فهو يستخدم مادة قديمة، ليصوغ منها، أو يقيس على منوالها كلمات جديدة، بل إنه هو من يسهم، إلى حد بعيد، في بقاء الصيغ والأساليب، ثابتة من دون تغيير، فاللغة من هنا، تبدو ذات طبيعة تقليدية محافظة، ولا يغيّرها إلا تحولات الواقع الاجتماعي والحضاري العام، وهي مكرهة على هذا التغيير، وهذا التغيير، يتحقّق في شكل صيغ جديدة لابدّ من استخدامها، لدى الأفراد، من هنا تبدو السمة الإبداعية واضحة، إذ أن هذه الصيغ، تستقرّ، مع الوقت، وتطرد الصيغ التقليدية المنافسة لها، لأن هذه الصيغ القديمة تأخذ في ترك المجال، للجديدة، فالواقع الاجتماعي بملاساته الجديدة، لا تكفيه، أو تستوعبه الصيغ القديمة، وتختلوا لو أن الجاحظ، أو الأصمعي، بحث ليعيش معنا يوماً واحداً، لاستغرب العديد من الألفاظ والتراكيب التي نستخدمها نحن اليوم.

القياس، ذو علاقة بالكلام، لا باللغة، في ثنائية دوسوسير المشهورة: (اللغة / الكلام. Langue / Parole)

يربط دوسوسير القياس، بالكلام: (النشاط الفردي)، لا باللغة: (النظام المستقرّ داخل العقل الجمعي)، لأن عملية القياس، إنما يقوم بها الفرد، لا الجماعة، ولكن، إذا استقرّ الاستعمال على الصورة الجديدة، وتبنّاه أفراد آخرون واستخدموه في سياقات اجتماعية متشابهة، انتقل إلى نظام اللغة الخفي وصار جزءاً من هذا النظام، ودخل الذخيرة الجمعية المستقرّة، للجماعة اللغوية، وليس في الأمر تناقض، بين آليات عمل الكلام الفردي، ونظام اللغة الاجتماعي، فكلّ منهما يكمل الآخر ويحقّقه، بل وجود أحدهما ضروري لعمل الآخر، فالتطور والثبات، الكلام واللغة، وجهان لعملة واحدة، هي اللغة.

القياس، في الفهم اللغوي الحديث:

+ - القياس، مع أنه هو جزء من القواعد، إلا أنه ليس عملية تعقيد، ولكنه نشاط لغوي، يمارسه كل فرد منا، حين يبتدع، وهو يتكلم الصيغ الجديدة، وفق صيغ أخرى، مخزنة عنده وموروثة عن المجتمع والجماعة اللغوية التي ينتمي إليها.

+ - عملية القياس، تقوم على أساس المشابهة، في الشكل، أو في المعنى، أو فيها معاً، بين المقيس والمقيس عليه، وليس شرطاً في القياس، أن يكون المقيس عليه شكلاً مثالياً كاملاً، فلا تتحقق هذه الصفة في المقيس عليه دوماً، ولكن المتحدث يقيس، على المفردات والأساليب، التي استقرت وتقبلتها الجماعة اللغوية، ولو كانت هي نفسها، جديدة، نوعاً ما، فكل نصف قرن، يحدث تغير كبير، في الألفاظ والصيغ، لكننا لا نفطن له، ولو نطلع، بواسطة فيديو، على حوار جرى بين متحدثين، في قريننا، قبل خمسين عاماً، لوقفنا على تغير، حدث في اللفظ والتركيب والأصوات.

+ - القياس عملية لغوية، تتخذ شكلاً مطّرداً، ومنظماً، بين المقيس والمقيس عليه، في المفردات والراكيب، ولكن حدوث المشابهة التامة بينهما، دوماً، أمرٌ مستبعد، ولهذا نجد في كل لغة، ما هو شاذٌ يحفظ ولا يقاس عليه.

+ - يقوم القياس بدور هام، في التطور اللغوي، إذ بواسطته يتم توليد الصيغ الجديدة، التي تحل محل القديمة، التي لم تعد تلائم الحياة الاجتماعية الجديدة، مع حفاظه على الملامح منها.

القياس في العالم العربي الحديث:

لم يعد القياس، عند علماء العرب المعاصرين، الذين اطلعوا على علم اللغة الحديث، المعرفة بقواعد النحو واللغة، وإنما عاد ليكتسب مفهومه القديم، الذي كان له عند النحاة الرواد الأولين، وهو : انتحاء سمت كلام العرب، والنسج على منواله، وهذا هو المفهوم المعاصر له، فيرى إبراهيم أنيس، في كتابه : من أسرار اللغة، أن القياس، عملية عقلية فردية لا تتوقف، يقوم بها كل فرد، إذا تحدث، وهي عملية مستمرة، في كل لغة، وكل عصر، تقع لدى كل إرادة في التعبير .

ما أصبح يُقاس عليه، عند المحثين، هو ما يختزنه الفرد، في حافظته الخاصة، وما اكتسبه، منذ نشأته، من مسائل اللغة، وليست النصوص، المنقولة عن العرب، في عصر الاحتجاج، وعن مناطق جغرافية محدّدة، للقبائل العربية.

لا يقيس البصريون قديماً، إلا على ما هو شائع، من الألفاظ والاستعمالات، لكن المحثين يتنوا، أن الفرد يقيس على ما استقرّ عند، في ذهنه، ولو كان قليلاً كان القدماء يظنون، أن عملية القياس، يقوم بها المتعلمون والمتأدبون والعلماء، أما الناطقون السليقيون بهذه اللغة، فلا يقيسون، إذا نطقوا، غير أن المحثين يقولون، كل متحدث باللغة، قديماً، أو حديثاً، صغيراً كان أم كبيراً، متعلماً، أم غير متعلّم، يقيس، قبل أن يتكلم، ولهذا نجد عندهم : (السماعي، والقياسي)، والواقع هو أن اللغة، في ذاتها، هي عملية قياس دائم، حتى إذا استقرّ هذا القياس ودام فترة طويلة، يتحوّل، إلى : (سماع)، أي : نظام لغوي للجماعة، ما يلبث أن يتجدّد بالقياس، وهكذا، جدل دائم ومستمر، من (الكلام)، إلى (اللغة)، ومن (اللغة)، إلى (الكلام).

ما يُقاس عليه أثناء الكلام، هو كلام أعضاء المجموعة اللغوية الراهنة، لكن، ما يُقاس عليه عند الرغبة في الكتابة والإنشاء والبحث، فهو نظام اللغة الثابت، الذي توقف قبل قرون، وهذه مشكلة، لأننا نتعلم لغة العلم، قبل نتعلّم العلم، في شكل علوم ومسائل ونظريات، غير أن هذه المشكلة (اللغوية)، هي، في الواقع، نعمة، لأن ثبات لغة الأجيال، يعني استمرار تراثهم العلمي والثقافي، مفهوماً ومثلاً، لدى الأجيال المعاصرة، وبقاء الروابط الروحية حيّة متقدة بين القدماء والمحدثين.

